



حاجة العالم الإسلامي إلى نسق مفهومي لتحقيق الخصوصية الحضارية

د. الحبيب مغراوي

فريق البحث في المصطلح والتواصل المعرفي
جامعة السلطان مولاي سليمان ببني ملال
المغرب

تمهيد:

يتعرض العالم الإسلامي، في هذا العصر، لنوع من التذويب الحضاري في سياق معركة وجودية بينه وبين الأمم الأخرى، خاصة تلك التي تدفعها روح استعمارية، وتقوم على مبدأ الهيمنة على الآخر، وتترك إدراكا عميقا أن الأمة الإسلامية، باختلاف أجناسها، وتنوع ثرواتها، تملك مؤهلات التنافسية والقدرة على السباق نحو عمارة الأرض وترشيد الحياة على ظهرها، فعملت الأمم الاستعمارية وتعمل دون هواده، بشتى الوسائل، على طمس الهوية الإسلامية، واجتثاث أصولها، وقطع صلة الحياة بالهدى الرباني.

وأمام الجهود الضخمة التي تبذلها تلك الأمم في سبيل تحقيق أغراضها، سياسيا وفكريا واقتصاديا وأخلاقيا، خفية وعلمانية، أضحى العالم الإسلامي أمام تحديات شتى على كافة المستويات والأصعدة، تعيق نهضته وتمنعه من تحقيق الشهود الحضاري والتقدم العلمي. مما حرك همم الغيورين على الأمة، من مفكرين ومثقفين وعلماء وسياسيين مخلصين، للبحث عن السبل الكفيلة بتجاوز هذه التحديات، وتعبيد الطريق أمام نهضة الأمة ورقبها الحضاري.

ولعل السؤال المركزي الذي شغل بال الجميع، وطرح نفسه بإلحاح، في كل بحث أو دراسة أو أي نقاش سياسي أو ثقافي، يتمحور حول التحدي الذي يحظى بالأولوية في أي إصلاح أو تغيير، والذي ينبغي تجاوزه لتجاوز باقي التحديات. هل يرجع هذا التحدي إلى اختلافات سياسية، أم نظم اقتصادية، أم نماذج فكرية، أم مناهج تربوية وأخلاقية، وغيرها من التحديات؟

والحقيقة أن العالم الإسلامي يشكو من تبعات جميع هذه التحديات ومن العجز عن تخطيها، وما زال البحث جار عن المدخل والمنطلق لتحقيق التجاوز والانعتاق من أغلال التخلف والتبعية للآخر في هذه المجالات. ومهما تعددت الحلول والمقاربات، فإن أبرز تحد - في نظري - ينبغي تجاوزه وصرف الإمكانيات واستثمار الطاقات للتغلب عليه هو: تحدي بناء الإنسان¹ المؤهل للاستخلاف وعمارة الأرض، المستشعر لمسؤوليته الحضارية في أرجاء هذا الكون الفسيح، المحقق لتوازنه في شؤون حياته الخاصة والعامة، القادر على الانخراط في النشاطات الاجتماعية والثقافية والسياسية لتحقيق العيش الكريم؛ من خلال امتلاك القدرة الفكرية والكفاية الأخلاقية ليعيش حياته الشخصية والاجتماعية دون إضرار بنفسه أو بغيره. وهو التحدي الذي عجزت عن تجاوزه المحاضن الرئيسة والفضاءات الموكلة إليها تربية الإنسان وبنائه الفكري والثقافي، للخروج من حالة الوهن والضعف الذي تعيشه

¹ - يضع المفكرون والمهتمون بالحضارات ثلاثة أسس لبناء أي حضارة، في مقدمتها بناء الإنسان ثم بناء السلطان فبناء العمران.



المجتمعات الإسلامية.

إن بناء الإنسان، فكرا وقيما، على رأس أولويات أي إصلاح، وأي تخط له يعتبر صحيحة في واد وضياعا للجهود والإمكانات، لأن كل المجالات الحياتية تستند إلى فكر يوجهها ومنظومة من المفاهيم تؤطرها وتضبط مساراتها، ففي السياسة نسمع مثلا بالفكر السياسي، وفي التربية نسمع بالفكر التربوي، وفي الاقتصاد يوجد فكر اقتصادي، وهكذا، وما الفكر هنا إلا مجموعة من المفاهيم البانية لتصورات الإنسان حول الوجود، والضابطة لسلوكه الحضاري في جميع مجالات الحياة، ومن ثم فتفعيلها بعدها النسقي يتولد عنه ما يصح تسميته بالفكر الحضاري؛ لأنها تتداخل وتتساند نسقيا لتفسير الظواهر أو نقدها أو تقويمها، أو لبناء المشاريع والتفاعل مع الكون. ويعود سبب عنايتنا بنظم المفاهيم في هذا المقام إلى أمرين اثنين: الأول داخلي يرجع إلى الإقصاء المتعمد للمنظومة المفاهيمية المؤسسة للفكر الحضاري للأمة وطرحها جانبا، كما يرجع إلى الخلل الذي مس مضامين المفاهيم السائدة وترتيبها حسب قيمتها وأولوياتها في الأعمال، إما بسبب الإهمال، أو بسبب التأويل غير المنضبط للمقتضيات العلمية والمنهجية، أو التناقض الحاصل بين مكونات الأمة في توظيفها. والأمر الثاني خارجي يرجع إلى كون الغرب المستعمر الذي يعي هذه الخصيصة في بناء الحضارات، وهي الانطلاق من بناء فكر الإنسان، قد عمل مبكرا على إعداد حزمة من المفاهيم¹ تحقق له غايتين: الأولى تفكيك النسق المفاهيمي الإسلامي، والثانية: تطويع أفراد الأمة ومؤسساتها للقبول بالنموذج الفكري الغربي والنظر إليه باعتباره المخلص والممسك بطوق نجاة مجتمعاتنا وشعوبنا من ربكة التخلف والتراجع الحضاري. وقد ثبت أن << تحليل بنية أية حضارة -على حد تعبير د صلاح إسماعيل عبد الحق- يرتكز على ثلاثة عناصر في غالب الأمر هي: المفاهيم، والعلاقات التي تؤلف من المفاهيم حقلا، والعلاقات التي تشكل من الحقول نسقا>>².

ونظرا لهذه الوظيفة المتميزة للمفاهيم في بناء الحضارات، فإن سؤال المفاهيم يعتبر سؤالا أنيا وضروريا، والجواب عنه يكشف بجلاء أن معركة المفاهيم في عصرنا الحالي معركة حاسمة، في ظل التفاعل الحضاري مع الآخر، لذلك يجب العمل على تفعيل الخصومية والهوية وإعداد المنظومة المعرفية، التي تتطلب العدة والعتاد،

¹ - يسبق توظيف الحزمة المفاهيمية التي يصدرها الغرب لشعوب الأمة الإسلامية عملاقان استراتيجيان مهمدان وهما: أولا: تفكيك دار العروبة والإسلام إلى كيانات سياسية قطرية، وثانيا: الاستيلاء على سيادة الدولة القطرية في صنع القرار السياسي المستقل. فإذا كان الأول يتم من خلال العنف والاستعمار العسكري المتوحش، فإن الثاني يتم عبر مؤسسات الاستعمار الجماعي كصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية ومجلس الأمن الدولي والشركات العابرة للقوميات والحلف الأطلسي وغيرها. (ينظر: طلابي، محمد - تقرير في نقد العقل السياسي المغربي الرسمي والمعارض، سلسلة اخترت لكم، الطبعة الأولى، ألوان مغربية، مكناس، 1423هـ-2002م، ص 13-14-15)

² - عبد الحق، صلاح إسماعيل، مقال، توضيح المفاهيم ضرورة معرفية، من كتاب: بناء المفاهيم، دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، إشراف علي جمعة محمد وسيف الدين عبد الفتاح إسماعيل، الطبعة الأولى، دار السلام للطباعة والنشر، 1429هـ-2008م، 31/1.



والإرادة والاستعداد لضبط النسق المفهومي للذات الإسلامية في ضوء الوحي وما نتج عنه من علوم ومعارف. ومن ثم فإن استمرار غياب هذا الإصلاح المرتبط بالمفاهيم في بناء الذات الإسلامية يعني استمرار العقم الحضاري للأمة والفرقة واتساع الهوة بين الفاعلين في مجالات الحياة كلها. لبسط هذه القضايا وبيان علاقة المفاهيم بأي مراجعة ثقافية أو إصلاح حضاري وعلاقتها ببناء الإنسان وإعداده، سينتظم هذا العرض مجموعة من المحاور سأوردها على الترتيب الآتي:

أولاً: مركزية الواجهة المفاهيمية في التدافع الحضاري.

ثانياً: واقع الأمة الإسلامية اليوم في ظل تفكك النسق المفاهيمي.

ثالثاً: المفاهيم وثنائية الذات والآخر.

رابعاً: إعداد المفاهيم وتأهيلها خيار استراتيجي.



أولاً: مركزية الواجهة المفاهيمية في التدافع الحضاري

تحقق الأمم والمجتمعات كيانها وهويتها من خلال ما تمتلكه من قيم حضارية وثقافية، ومن مفاهيم مؤسسة لمشاريعها الفكرية والعلمية، إضافة إلى قدراتها المادية واللامادية، خاصة إذا هي أحسنت استثمار ذلك وبلورته في إطار مشروع نهضوي واضح المعالم تصورا وممارسة، يحقق حصانتها الداخلية وسلامتها من أي استلاب ثقافي أو قيمي. ولقد شهدت مسيرة التاريخ البشري واجهات عدة للتدافع، فقدت - أو كادت تفقد - جراءها أمم كثيرة هويتها وشخصيتها التاريخية، لأنها لم تفعل مخزونها الثقافي وذخيرتها من القيم والمفاهيم، ولم تسخر قدرات أفرادها ومؤسساتها لتحقيق آمالها فضلا عن آمال البشرية.

ولعل من أظهر ملامح الضعف والانحيار في الأمم استهانتها بقيمها ومفاهيمها، وعدم إدراجها في أي مشروع نوعي يستهدف بناء الإنسان، إضافة إلى ترك العنان لملاسات التاريخ وتحولات الواقع لكي تؤثر في مفاهيمها الأصيلة الضامنة لوحدها وتماسكها الاجتماعي والثقافي، مع عدم التفريق بين الأساسي منها الذي ينبغي العناية به ضبطا وتنسيقا وتعلما للأجيال حتى يتحقق وصل الماضي بالحاضر، وبين المفاهيم الفرعية القابلة للتطور وفق ما يستجد في حياة الناس الفردية والجماعية.

ومهما تعددت مداخل التدافع مع الآخر، من عسكرية إلى اقتصادية إلى سياسية ومعرفية، فإن الواجهة التي أثبتت فعاليتها في التأثير في قدرات الآخر وتوجيه إمكاناته المتنوعة هي الواجهة الفكرية، المتمثلة في إجراءين اثنين: الأول: خلخلة وهدم نسقه المفاهيمي، والثاني: إقامة نسق مفاهيمي جديد على أنقاض النسق المفكك. حيث يحل الجديد محل النموذج السائد، مقدما تفسيرات وإجابات لأسئلة كونية ومصيرية. فهان التدافع اليوم قائم على هذين الإجراءين، لأنهما عامل رئيس في بناء الإنسان وتوجيه قدراته وملكاته في اتجاه معين، ذلك أن >> بناء الإنسان تربويا وعلميا وثقافيا هو الاستثمار المضمون، وهو الرصيد المدخر للمستقبل، وهو مع هذا وذاك العمل المطلوب في المرحلة الراهنة التي تدلهم فيها الخطوب على المستوى العالمي، لأن التحدي الذي يواجه البشرية في ظل المتغيرات الحالية يقوم على أساس تربوي وثقافي وحضاري، اتساقا مع ما يعرف بثورة المعلومات من جهة، وانسجاما مع التطور الحثيث الذي تعرفه الأبحاث العلمية الدقيقة من جهة ثانية، وبموازاة انهيار العقائد والإيديولوجيات الشمولية التي احتكرت المعرفة لعقود من السنين، لا يستثنى منها عقيدة وإيديولوجية ونظام من وضع العقل البشري، وهو الأمر الذي يجعل الصراع العالمي، أو التدافع بين الناس، يكتسي الطابع الثقافي والفكري في المقام الأول، بما يعني أن معركة الفكر والثقافة، التي أساساتها التربوية والتعليم والتكوين العام، هي معركة



المستقبل يقينا»¹.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التدافع في مضمار المفاهيم والقيم، لا يقتصر على ما بين الأمم التي تختلف مرجعياتها، بل قد يكون بين مكونات المجتمع الواحد وفئاته المذهبية والسياسية وحتى العمرية. نتيجة رخاوة المفاهيم وميوعة القيم التي تسود أوساطهم، بسبب إهمالهم للثوابت الجامعة أو عدم اقتناعهم بفعاليتها، إضافة إلى اختلاف توجهاتهم الفلسفية والفكرية التي قد تعكس تبعية لمذاهب خارجية لا تمت للمرجعية الأساس للأمة بأي صلة، فيكون هذا مدخلا سهلا لبسط النفوذ المفاهيمي الخارجي على الأمة، خاصة إذا تم ذلك في تناغم مع سياسات أهل القرار فيها.

وإذا رجعنا إلى عصر نزول القرآن الكريم، ودعوة النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، سنجد عصرًا لإنبات المفاهيم بامتياز، لأن المقصد آنذاك كان هو بسط معالم رؤية جديدة للخالق والكون والحياة والإنسان، تتبني عليها سلوكات وأعمال هدفها عمارة الأرض ونشر العدل والكرامة الإنسانية. فكانت المفاهيم هي الوحدات التصورية لهذه الرؤية، لذلك استغرق النبي صلى الله عليه وسلم وقتًا طويلاً في تصحيح المفاهيم السائدة وغرس مفاهيم جديدة لم تعدها البشرية، ستكون حاملة لمضامين الوحي الموجه لحركة الإنسان إلى قيام الساعة. وهكذا تم تثبيت مفاهيم مثل: الدين - الإسلام - الإيمان - الأمة - الشهادة - الاستخلاف وغيرها من المفاهيم الكلية التي ستحكم التصورات وتضبط حركة الإنسان في الحياة، وستكون قاطرة التحول الوجودي للإنسان فكراً وممارسة. ومن ثم فقد قدمت >> النبوة الخاتمة وهي جماع النبوات.. أنموذجاً حضارياً، وإن شئت فقل: مختبراً حضارياً مر بكل ظروف الحياة ومنعرجاتها، من نصر وهزيمة، وقوة وضعف، ونهوض وسقوط، ودعوة ودولة، وكيف تعاملت معها من خلال عزمات البشر وسنن الله الجارية، لتكون أنموذج اقتداء ودليل عمل لكيفية التعامل مع الحياة، بكل ابتلاءاتها، سواء في ذلك التعامل مع (الذات) أو (الأخر)، ولتؤكد أن الإنسان بثقافته هو الحضارة، وأن الإيمان (المحرض الحضاري) هو الانعتاق من الاستبداد والاستعباد، وإن شئت فقل: من الشرك بكل أثقاله؛ فالإيمان المحرر هو الوقود الحضاري، وهو أساس الحضارة وسبيل فاعليتها ومنجم التضحية في سبيلها على هداية الوحي وبصيرة العقل»². وهذا ما أدركه العرب آنئذ فجدوا فصحاءهم وكبراءهم للتصدي له، وصرف الناس عن سماعه حتى لا تتغير القناعات والمواقف، ومن ثم يتغير النظر إلى تفاصيل الحياة، قال تعالى: {وقال الذين كفروا لا

¹ - التوجيهي، عبد العزيز بن عثمان، الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري، سلسلة المعرفة للجميع، منشورات رمسيس، الرباط 1419هـ-1999م، ص 151.

² - حسنة، عمر عبيد، تقديم كتاب الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية - دراسة مقارنة - لعبد الله محمد الأمين النعيم، سلسلة كتاب الأمة، العدد 153، الطبعة الأولى، الدوحة، 1434هـ، 2012م، ص 8.



حاجة العالم الإسلامي إلى نسق مفهومي لتحقيق الخصوصية الحضارية

د. الحبيب مغراوي

تسمعون لهذا القرآن والغوا فيه لعلمكم تغلبون¹. ولا يخفى ما يحمله مفهوم اللغو من دلالات التحريف والتشويه، لذلك اعتبروه مدخلهم للغلبة والهيمنة. ولم يقف الأمر عند عهد النبي صلى الله عليه وسلم، بل استمر التدافع في ساحة المفاهيم بين أمة الإسلام وغيرها من الأمم، وانتقل مع توالي الزمن ليحتدم بين مكونات الأمة ومذاهبها السياسية والعقدية، وأصبح لكل مذهب مفاهيمه ومصطلحاته الخاصة، والأفدح أن مفاهيم الوحي الأصلية بدأت تتعرض للتحريف والتزييف خدمة لعقيدة كل مذهب وتصوره حول قضايا الحياة، فعم الخلاف والشقاق في الأمة، وتفكك نسق المفاهيم، وأصبح عاجزا عن لم شتات مجتمعاتها حول كلمة سواء، وانقلب الأمر في كثير من الأحيان إلى حروب عسكرية دامية، بسبب ادعاء كل فرقة أنها تعرف الحقيقة، أو ممثلة للدين وبيدها طوق النجاة.

وأمام هذه النكسات ذات الخلفية الفكرية والتصورية، انبرى العلماء يستنفرون قدراتهم العلمية والمنهجية لرأب الصدع في جسد الأمة، حيث انكبوا على المفاهيم يصححونها ويضبطون مصطلحاتها في كافة المجالات المعرفية خاصة العلوم الشرعية، وذكروا ذلك في مقدمات كتبهم تنبيهها على خطورة المفاهيم في ضبط النسق المعرفي للأمة وفي توجيه مسار الحياة في ضوء الشرع والعلم، بعيدا عن إملاءات الأهواء وتحريفات المذاهب. كما انتبه العلماء إلى ما يمكن أن تحدثه المصطلحات الوافدة في الثقافة الإسلامية من خلل في نسق مفاهيمها، إذا هي لم تعرض ما تستورده على مصفاة تحليل المفاهيم قصد تبيئتها وتطويعها مع السياق الإسلامي، فقاموا برصد هذا النوع من المصطلحات وتصنيفها ومعالجتها من خلال القواعد الصوتية والصرفية العربية لتنتهي العملية بالبحث عن موقعها الوظيفي لتكون مؤهلة للإدماج والاستعمال في العلم والمعرفة والمجتمع. وقد كان لجهودهم الفضل الكبير في تحصين المنجزات المعرفية من سوء الفهم والتأويل الذي لا ينبني على منهج علمي سليم.

ورغم هذه الجهود الرائدة للعلماء، فإن الأمة لم تسلم من جهود مضادة، تقف على الطرف النقيض، لم تتسلح بالتأني، ولا بالمنهج العلمي الدقيق، فحرفت دلالات المفاهيم، وزيفت حقائق الأشياء، بالنقص أو بالزيادة، بعيدا عن التأصيل والتحقيق، كما تلففت مصطلحات وافدة دون تفتيش جاهزيتها للتوظيف في السياق الإسلامي، خاصة بعد أن استشرى الجمود والتقليد السلبي، وتناست الطوائف والمذاهب العقيدية والفكرية والسياسية، فأصبح كل حزب بما لديهم فرحون. ولنسمع لأبي حامد الغزالي في القرن الخامس يقول عن ما أصاب مفهوم التوحيد من انحراف: >> قد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضة الخصوم والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد (...). مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول، بل كان يشد

¹ - فصلت: 26/41.



منهم النكير على من كان يفتح بابا من الجدل والممارسة (...). وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله¹.

ثانياً: واقع الأمة الإسلامية اليوم في ظل تفكك نسق المفاهيم

إذا كان أمر المصطلحات والمفاهيم كذلك في العصور السالفة، من حيث التزييف والتحريف، فإن أمرها اليوم يبدو أكثر فداحة، ونحن ننظر إلى أمة مشلولة، سلمت أمرها لغيرها، إلى أبعد حدود الاستسلام والتبعية السياسية والفكرية والقيمية، حيث تعاقبت على الأمة فترات تاريخية وهي تحمل في داخلها عوامل الضعف والترهل الثقافي والحضاري، بسبب تعطيل فاعلية المفاهيم الأصلية التي ترسم معالم التصور الحضاري، وبسبب تفكك نظام المفاهيم وعجزه عن التعبير عن خصوصيتها وهويتها. مما جعلها لقمة سائغة بين فكي المستعمر العاشم، الذي جعل من سلاح المفاهيم أفكاً واجهة للهيمنة والتوجيه نحو غاياته الحضارية، فكانت بذلك واجهة ومدخلا استراتيجياً لتطويع العالم الإسلامي والتصرف في قدراته وإمكاناته المادية واللامادية، والأدهى والأمر أن يجند مكونات الأمة السياسية والثقافية لخدمة مشروعه الفكري والثقافي، من خلال فضاءات التربية والتعليم والإعلام، حيث التسويق للمفاهيم والأنساق المعرفية الغربية قصد تبنيها وإعمالها تحت مسميات عدة: كالتقطيع مع التراث والحداثة والعولمة والمعاصرة والانفتاح على الآخر، والمثاقفة وغيرها >>وحين تكرست الاختلافات في داخل الأمة وتحول الناس إلى معسكرات متحاربة، صارت المفاهيم الوافدة -بحد ذاتها- هدفاً ومقصداً لبعض الفصائل يستحق أن يفرض على الفصائل الأخرى ولو بالقوة، ومع أنه كان هناك وعي لا بأس به بأن هذه المفاهيم تستبطن في ثناياها أهداف ومقاصد الثقافات المجلوبة وتستتبعها إلا أنه كان هناك إصرار بنفس القدر على فرضها على الساحة الفكرية العربية حتى لو أدت إلى مسخ وتشويه أهداف ومقاصد هذه الأمة².

ويختبر واقع الأمة كلما طرحت قضايا معاصرة وإشكالات حياتية على المجتمعات الإسلامية، حيث يعجز المثقفون وأهل العلم عن إعمال المصطلحات التراثية وتوظيفها في سياقات جديدة، بسبب عدم تشبعهم بها أو رفضهم لها أو عدم رصد نسقيتها، فتقدم وصفات متعددة لعلاج الأدواء وحل الإشكالات ومعالجة القضايا، غير أنها وصفات متضاربة ومتعارضة تتحكم فيها المصالح الظرفية لأصحابها أفراداً كانوا أو جماعات، تحت ضغط

¹ - الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، لبنان، 1426هـ-2005م، كتاب العلم، ص 43.

² - العلواني، طه جابر، تقديم كتاب: بناء المفاهيم، دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، إشراف علي جمعة محمد وسيف الدين عبد الفتاح إسماعيل، الطبعة الأولى، دار السلام للطباعة والنشر، 1429هـ-2008م، 11/1.



الإملاءات السياسية والأيدولوجية الضيقة، بل وضغط الأطراف الخارجية المتحكمة في الأطراف الداخلية. إن المفاهيم ترتبط بمرجعياتها، فإذا اختلفت المرجعيات اختلفت المقاصد والغايات، ومن ثم تتعدد أنساق المفاهيم ونظم القيم، ويلغي بعضها البعض الآخر، بالسلم أو بالعنف، فتضحى المجتمعات فئران تجارب في مختبرات المفاهيم والقيم الأجنبية، ومن هنا فإن <>أزمتنا المعاصرة التي ما نزال نئن تحت وطأتها، يعتبر واحدا من أهم أسباب استفحالها أو تفاقمها، الاحتكاك غير المنضبط أو المبرمج بالغرب الأوروبي وإزالة سائر الحواجز بين العقل المسلم وبين مفاهيم الغرب الأوربي بأنواعها المختلفة، مما جعل هذه المفاهيم تسيطر على العقل المسلم طاردة من أمامها بقايا المفاهيم الإسلامية لينصرف إلى الحجاج والتخاصم والخلاف والتشتت والصراع، وإقامة الكيانات المتصارعة، والمعارك الوهمية بين الأصالة والمعاصرة، والتراث والحداثة والتقليد، والتجديد إلى آخر المنظومة الثنائية التنازلية، وهكذا شغل العقل المسلم عن البناء المعرفي المنبثق من نموذج المعرفي ومنهجية المعرفة... فاقدا الإحساس بتراثه وتاريخه ورسائله ومسؤوليته وشهادته ووسطيته<>¹.

فعلى سبيل المثال، من أبرز المفاهيم التي شغلت العقل المسلم اليوم، وجعلت الأمة تئن تحت وطأة تداعياته ونتائج السياسية والاجتماعية، مفهوم الإرهاب الذي دخل سوق التداول المفاهيمي في علب مصنوعة جاهزة للاستهلاك، متعالقا مع مفاهيم أخرى تشكل في مجموعها تصورا خاصا للحياة والعلاقات الإنسانية، تنتج عنه ممارسات شتى تتضوي كلها تحت مفهوم واحد هو: الإرهاب. كما تحتفظ الآلة الغربية الصانعة، والأنظمة التابعة، لنفسها بحق تطوير عنق كل من يخرج عن إرادتها أو برنامجها السياسي القائم على الهيمنة والتسلط، بحبل الإرهاب، وتستعمله لصناعة فرق وجماعات وهمية من الفارغين المضللين الذين يتبنون المفهوم ويمارسون نشاطاتهم في ظله، ومن ثم أضحى مفهوم الإرهاب فعالية سياسية ودولية تحقق وظائف شتى تصب في مصلحة قوى الهيمنة والاستعمار وأنظمة القمع والاستبداد. خاصة وأنه يسهم من خلال مضامينه والمفاهيم التي تولد في كنفه في إزاحة نسق مفاهيمي آخر مبني على السلم والتعايش في ظل الكرامة والعدل، وترسيخ حزمة قيم بدله قائمة على العنف والكراهية؛ وعلى إثر ذلك يتأثر الإسلام بأكمله، لأن الإرهاب- في تصور غير المسلمين- يتم من خلاله وباسمه. وعندما يتأثر الإسلام يتأثر المسلمون، ومن ثم تنزوي الأبعاد الحضارية والغايات المثلى التي جاء بها دين الإسلام.

وقس على مفهوم الإرهاب مفاهيم أخرى في كافة المجالات الحياتية والمعرفية، أريد لها أن تبسط هيمنتها على العقل المسلم اليوم، بما تحمله من معان ناتجة عن سياقات تختلف عن سياقات البناء الثقافي والنسق المعرفي

¹ العلواني، طه جابر، بناء المفاهيم- دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، 10/1.



للأمة، يحتكم المسلمون إليها ويحددون مواقفهم وعلاقاتهم في ضوءها، مثل مفهوم الحداثة والعولمة والتقدمية والحرية والدين وغيرها.

ثالثا: المفاهيم وثنائية الذات والآخر

تحضر ثنائية الذات والآخر في كل نقاش يتعلق بالخصوصية الحضارية للأمة الإسلامية، حيث تطلق الذات على الأمة الإسلامية -جميع فئاتها- باعتبارها كيانا متميزا بمرجعياته الثقافية وسماته الحضارية وتجربته التاريخية، بينما يحيل الآخر غالبا على مختلف فئات البشر المنتظمين في مجتمعات وكيانات تفارق كيان الأمة في السمات الاجتماعية وفي المرجعية والبنية والتجربة. وقد وجد العقل المسلم في سياق هذا النقاش حول الذات والآخر أمامه ثلاثة تصورات كبيرة يضم كل واحد منها رؤى ومقاربات حول طبيعة العلاقة بين طرفي هذه الثنائية: التصور الأول: ينظر إلى الذات باعتبارها بنية مغلقة ومنعزلة، يغني ما كان في ماضيها عن ما هو كائن في حاضرها، لذلك يجب تسويره بجدران متينة، حتى لا يتغير أو يتعرض لتيارات فكرية تنتمي إلى منظومة الآخر. وهذا التصور له تداعيات سلبية على الأمة نجملها في الآتي:

- النظر إلى الآخر-ابتداء- نظرة عداء وصراع، وأنه عدو غاشم ينبغي محاربتة ومواجهته، مع أن هذا المنظور ينافي البعد الحضاري الاستيعابي لمفهوم التدافع في الإسلام. ما يجعل قوى الاستعمار تستغله لتمرير منظومة المفاهيم المتعلقة بالإرهاب ونعت الإسلام والمسلمين به، ومن ثم برمجة سياساتها الخارجية والعسكرية في ضوء هذه المنظومة.

- التبخيس - غير مباشر - لقيمة النسق المفاهيمي للذات، ومن ثم تبخيس المرجعية التي يستقى منها هذا النسق، ففي الوقت الذي يظن فيه هؤلاء أن الانعزال تحصين لهذا النسق، يتم تفويت فرص اختباره في وضعيات الحياة المختلفة، بل تفويت فرص إظهار جاهزيته وتأهيله لتقديم الحلول لمشاكل الإنسان الحياتية، مما يفقده التقدير الداخلي فضلا عن الخارجي، إضافة إلى جعل الذات عرضة لتصنيف كوني من قبل الآخر لا يراعي فيه هويتها وإمكاناتها، كإدراجها في دول التخلف ودول عدم الانحياز والدول النامية والتي في طريقها إلى النمو وهكذا. - فقدان هيبة الأمة والشك في إمكاناتها، من خلال حجب مقدراتها القيمية والمعرفية عن الآخر، الذي يتباهى بما عنده، ولو وضع النسق المفاهيمي وتطبيقاته في محك الاختبار لأثبت جدارته ولهيمن على غيره، والهيمنة هنا لا تعني الإقصاء وإنما تعني إثبات الفعالية والقدرة على التفعيل والاستيعاب.

- انحسار عالمية النظام القيمي والمفاهيمي للإسلام، وتسويق صورة ضبابية مفادها أن هذا النسق إنما هو لقوم معينين فقط ولا يتسع للبشرية زمانا ومكانا.



- عدم التفريق بين المفاهيم الكلية الأصيلة المؤطرة للتصور، الحاملة لحقائق حول الكون والحياة والإنسان، المحددة للخصوصية والهوية، وبين المفاهيم الإجرائية التحليلية التي تقتضي، من جهة، التغير والتطور بناء على التطور الحاصل في مجريات الحياة والعلاقات الإنسانية، ولكونها، من جهة أخرى، مفاهيم كونية تناسب جميع التجارب الإنسانية وتخوض غمار التحولات في مجال المعرفة والاتصال.

- هيمنة التفسير التبريري الذي يرجع مشاكل الأمة إلى الآخر وحده، وسيادة عقلية المؤامرة التي تحجب المشاكل والأمراض الذاتية، ونفوت الفرص على رصد مكامن العطب الحقيقية في الأمة لإيجاد حلول مناسبة لها. أما التصور الثاني: فينظر أصحابه-غالبا بقصد- إلى الذات نظرة دونية وتقيصية، خاصة ما يرتبط بمخزونها التراثي، وأنساق مفاهيمها وقيمها التي توجه مسارها الحضاري؛ وفي أحسن الأحوال ينظر بعضهم باحترام لهذا النسق لكن مع وقف التنفيذ، بحجة كونه استنفد أغراضه في العصور الماضية، وأنه قدم إجابات لأسئلة الماضي؛ بينما يعجز اليوم عن تقديم حلول لقضايا الإنسان المعاصرة، ومن هذا المنطق فهو يتبنى خيارا نقيضا لسابقه وهو الخروج من الذات والارتقاء في أحضان الآخر، من خلال علاج أدواء الأمة بمفاهيم ونماذج فكرية مشوهة ومبتورة من سياقها الأصلي ولا تمت إلى مرجعية الأمة بصلة، بل هي مستقاة من فلسفات ونظريات معرفية يتطلب تنزيلها على واقع الناس هدم النسق المعرفي الإسلامي من أساسه. إن هؤلاء: >> باتوا يطلبون النهوض في إطار (الآخر) واعتناق قيمه، وقياس واقعهم على أصول ثقافية وحضارية غريبة عنهم، فأصبحوا أشد تخلفا وضياعا، وبذلك عجزوا عن تنمية (الذات) فكانوا أدوات إضافية في تكريس التخلف، فلا استطاعوا النهوض من خلال قيمهم وتجربتهم الحضارية التاريخية، ولا قدروا على امتلاك أدوات النهوض عند (الآخر)؛ لأنهم غير مؤهلين، بتخلفهم وأصولهم الحضارية، للتعامل معها بشكل سليم<<¹، وقد كان لخيار هؤلاء نتائج وخيمة على العالم الإسلامي، من أهمها:

- التمكين لثقافة الآخر ونموذجه الفكري، بأيدي مفكرين وسياسيين محسوبين على الذات، وتسخير الفضاءات التربوية والمعرفية والإعلامية لتمرير الحمولة المفاهيمية العقيمة لتنشئة الأجيال.
- إحداث صراع فكري داخلي بين مكونات الأمة الواحدة، والمجتمع الواحد، جراء تعارض النماذج الفكرية والأنساق المعرفية المعروضة، بناء على خليط من المفاهيم المستوردة من خارج الذات، مع ما ينتج عن ذلك من

¹ - حسنة، عمر عبید، تقديم كتاب الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية- دراسة مقارنة، ص 12.



- تتناقض في عقل المسلم، بين مرتكزات الهوية الإسلامية وبين النماذج الفكرية البديل، التناقض الذي تختزنه برامجنا السياسية ومناهجنا التعليمية التي تفتقد إلى روح الانسجام والتنسيق على مستوى تقديم الأفكار والمفاهيم والقيم.
- هيمنة الآلة السياسية على البرامج والمناهج التعليمية والثقافية، وطغيان البعد الأيديولوجي في التعاطي مع قضايا الأمة الاستراتيجية. وهذا ما ينتج عنه غالباً التضحية بالمصالح الكبرى للأمة من أجل أهداف حزبية ظرفية ومصالح تخدم المحركين الحقيقيين لبعض الأحزاب والكيانات المشبوهة.
- غياب العمق الحقيقي للأفكار والمفاهيم، وتسطيحها من خلال تسويرها بمصطلحات وافدة لا تراعي خصوصية الثقافة الإسلامية وهويتها الحضارية.
- إعادة التجربة التاريخية القديمة للأمة، التي بدأت بتفريق كيائها إلى فرق ومذاهب عقائدية وكلامية، قلبت مسار توجيه الحركة الفكرية والثقافية، حيث انتقل الأمر معها من توجيه المفاهيم القرآنية للتصورات إلى توجيه التصورات لمفاهيم القرآن الكريم واستثمارها لخدمة الرؤى المذهبية. وهو الأمر نفسه الذي يتكرر اليوم، حيث تناسلت الأحزاب والمذاهب التي تحاول تأويل المفاهيم الإسلامية بما يخدم أيديولوجيتها وفلسفتها في الحياة، بل وجعلها محط مساءلة من قبل حزمة من المفاهيم الغربية والنماذج الفلسفية القديم منها والحديث.
- حياة أصحاب هذا التصور في وهم العصرية والحداثة، وامتلاك أدوات الفهم السليم لحقائق ما يجري حولهم، مقتنعين بأن ما يمددهم به الغرب هو نفسه الذي أسس به كيانه وذاته الحضارية. بينما العكس هو الحاصل؛ إذ - على حد تعبير مالك بن نبي >إن المدرسة الاستعمارية قد أسهمت في خلق هذا الوضع، إذ لم تكن تهتم بنشر عناصر الثقافة الأوروبية، بل تحرص على توزيع نفاياتها التي تحيل المستعمر عبداً للاقتصاد الأوروبي، فهي لا تسعى إلى اكتشاف ذكاء تلاميذها، أو دفع مواهبهم، وإنما تسعى إلى خلق آلات ذات كفاءة محدودة<<¹.

التصور الثالث: ينطلق أصحابه من منظور عميق يراعي الخصوصية الذاتية للأمة ويعترف بإمكانية التحديث ومد الجسور مع الآخر على أرضية التفاهم المشترك والتعارف المبني على التقدير لكل ما يسعد البشرية ويحقق كرامتها الإنسانية؛ ومن ثم فهذا التصور لا يدفعه النفس العدائي الانغلاقية، ولا عقلية الاستخذاء والركون لهيمنة الآخر، بل يتجاوز الخلفيات الفكرية التي يصدر منها التصوران السابقان، اللذان يمثل أحدهما ركونا إلى مفاهيم ميتة، صاحبها الأمة معها خلال تجربتها التاريخية، تفتقد إلى الفاعلية ولا تؤدي إلى حراك حضاري، وأدت إلى

¹ - ابن نبي، مالك، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، الطبعة الخامسة، دار الفكر، دمشق، 1406هـ-1989م، ص 65.



جمود دم الحيوية وخمودها في شرابين حياة أفرادها، خاصة تلك المفاهيم ذات البعد الخرافي الباقية من عصور الانحطاط والعجز الفكري، التي حالت دون الناس والمفاهيم الحية الأصيلة النابعة من الوحي، والعلوم الخادمة له، التي أنتجت النموذج الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى، الذي ضرب المثل في الحفاظ على الخصوصية ومد جسور التواصل مع الآخر، خاصة في مجال المعرفة وأدوات الإنتاج. بينما يركن التصور الثاني إلى نوع آخر من المفاهيم، وهو المفاهيم المميتة التي انتهت تاريخ صلاحيتها عند الآخر، فانتزعت من سياقها وأريد لها علاج أدواء الأمة الإسلامية، إلا أنها أحدثت أثرا عكسيا حيث أفقدتها المناعة المادية والمعنوية.

إن أصحاب التصور الثالث، بموقفهم هذا، يعبرون عن وعي حضاري لمفهوم الذات والآخر، مبني على رؤية مستوعبة للخصوصية في سياق التواصل والتعاون ومد الجسور، ويرون إمكانية تفعيل نسق المفاهيم الإسلامي في الحياة المعاصرة، دون إقصاء الآخر أو إلغائه، بل إحسان توظيف منجزه الفكري فيما لا يتعارض مع ثوابت الذات، لأن الآخر غير متوقف، ووقفنا عند تمجيد الذات والبحث عن مثالب الآخر ينتج عنه الدوران في فراغ وبقاء الحال على ما هو عليه فـ >> الحضارة الغربية اليوم في تجديد دائم، فلكل مرحلة مصطلح وعنوان ودراسات، واستشرافات مستقبلية، ولكل قضية وإشكالية مذاهب ومدارس ومؤلفات وفلسفات ورواد وأعلام، من الوجودية إلى الواقعية إلى اللبرالية، إلى الحداثة إلى ما بعد الحداثة، إلى انتصار الرأسمالية ونهاية التاريخ، ونهاية الوجودية ونهاية كذا... وهكذا بقية النهايات، وغير ذلك كثير من النهايات ونهاية النهايات، فهي لا تتوقف عن إنتاج الأفكار والأشياء، بل تحاول أن تمتص جميع الطاقات والخبرات والخيرات العالمية وتسخيرها لصالحها وبناء هيمنتها¹.

وإذا كانت التصورات الثلاث تصورات معبرة عن نظرة الذات للآخر، تختلف مواقفها حوله سلبا أو إيجابا، فإن الآخر وجد -وهو يبني ذاته- أن من بين أسس هذا البناء قراءة ثقافة الآخر (الذي هو ذاتنا) ومؤسساتها الفكرية والقيمية من زاويته، ، ليعرف الفلسفة الكامنة وراءها قصد الإفادة منها من جهة، وتوجيه مسارات توظيفها في حياتنا الخاصة حتى تبدو مشوهة غير ذات جدوى من جهة أخرى. وتختلف نظرة الآخر لذاتنا الحضارية باختلاف مشارب المفكرين ومنظري الثقافة الغربية، فتصور فوكوياما² ليس هو تصور هنتنغتون، وكلاهما يخالف تصور

¹ - حسنة، عمر عبید، تقديم كتاب الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية، ص 17.

² - ولد وشيهره فرانسيس فوكوياما yoshihiro francis fukuyama في 27 أكتوبر 1952، عالم وفيلسوف واقتصادي سياسي، مؤلف وأستاذ جامعي أمريكي، اشتهر بكتاب: "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" الصادر عام 1992.



توينبي¹ أو بريان بيدهام²، إلا أنه مهما اختلفت مواقفهم وتصوراتهم فإنها تشترك في منطلقاتها، وأبرزها الانطلاق من المركزية الغربية، والنظرة التنقيصية للمرجعيات الأخرى وما يستتبعها من أنساق فكرية ومعرفية، بمعنى أنهم ينطلقون جميعاً من عقلية تطويع الآخر وإرضاخه للامتثال لحزمة المفاهيم الغربية، رغم اعتراف بعضهم كبيدهام مثلاً بالتفكك الحاصل في المجتمع الغربي وأن الحياة أصبحت أقل أنساً وأكثر انطواءً على المخاطرة، مما يدفع الغرب للبحث عن طريق لتنظيم روح المبادرة الفردية ضمن نظام أخلاقي قد يكون ديناً أو اتفاقاً دنيوياً نقياً بشأن ما هو مقبول وما هو غير مقبول³. وكان هذا النظام هو الهدف الذي سعت لتحقيقه حركة الإصلاح المسيحية ثم جاءت حركة التنوير الفلسفية فبنت نظاماً أو نظاماً أخرى على أنقاضه، سرعان ما ذهب في مهب الريح مع الحركة الماركسية ثم مع اليسار الجديد الذي ذهب إلى أن >> مهمة التطرف السياسي الجديد (الراديكالية) هي إعادة بناء نظام أخلاقي، وهذا ما يتلوه المسلمون - حسب رأي بيدهام - إلى الرد عليه بقولهم: مرحباً بالرجوع إلى الماضي، ويفسر بيدهام هذا الموقف بأن المظهر المتميز الذي يميز الإسلام عن جميع الثقافات (الأرضية) اعتقاده أن الحياة الغيبية لا تحيط بالحياة اليومية فقط، بل لا بد من ارتباط الحياتين معاً، والغرب ظل متمسكاً بهذا الاعتقاد إلى زمن ليس ببعيد، ولكنه اندثر خلال القرن العشرين، ويؤكد بيدهام أن الغرب إذا عاد ليقرن الحياتين معاً سيجد فرصة أفضل لحل مشكلاته من جهة، وسيضيق الفجوة بينه وبين 1200 مليون مسلم<<⁴.

إن رأي بيدهام هنا يدل على وعيه بأمر منها:

- إدراكه لأهمية النظام الأخلاقي في معالجة معضلة التفكك الاجتماعي الحاصل في الغرب.
- إدراكه لانطلاق الحركات الدينية والفلسفية من نسق جامع قصد توجيه سلوك الإنسان.
- وعيه بالفارق بين النظام الموجه للثقافات المختلفة والنظام الموجه للثقافة الإسلامية والقاضي بالجمع بين البعدين الغيبي والحياتي. وأن الغرب لو جمع بينهما لكانت فرص تلاقيه مع المسلمين وفيرة.

إن هذا النظام الأخلاقي الذي يدعو إليه بيدهام هو ما يقابل نسق المفاهيم المستمد من الإسلام وعلومه، الذي ندعو إليه في بحثنا هذا، ونريد من خلاله تحقيق انتمائنا لهويتنا، وتفعيل خصوصيتنا الحضارية، والتخفيف من

¹ - ولد أرنولد توينبي في لندن سنة 1889م، وهو أحدث وأهم مؤرخ بحث في مسألة الحضارات بشكل مفصل، وله موسوعية تاريخية بعنوان: "دراسة التاريخ". ويعتبر أن الحضارة الإسلامية تمر بدورة الانحلال.

² - باحث سياسي وصحفي نشرت له مقالة في صحيفة الإيكونوميست في 6 غشت (أغسطس) سنة 1994م.

³ - ينظر جودت سعيد، الإسلام والغرب والديمقراطية، قراءات وتعليقات على مقالتي: صدام الحضارات لصاموئيل هنتنغتون والإسلام والغرب لبريان بيدهام، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، 1417هـ - 1996م، ص 94-95.

⁴ - جودت سعيد، الإسلام والغرب والديمقراطية، ص 94-95.



الهوة السحيقة التي بين مكونات الأمة السياسية والاقتصادية والمعرفية. إضافة إلى تقديم هذا النسق باعتباره نموذجاً يمكن للبشرية أن تسير على هداه للخروج من وضعها المتأزم القائم على الصراع والحروب وتقسيم العالم إلى عالمين: متحكم وخاضع، مركز وهامش، لأن الإسلام -حسب رأي مالك بن نبي- يمكن أن يكون عامل البلورة للوحدة الإنسانية، لأنه القاسم المشترك الذي تمتد جذوره في القارات الأربع، كما يثبت أقدامه مع الحضارة الحديثة في مواطنها العتيدة، خاصة وأن >> أمتنا قد ارتبط وجودها بالدين الإسلامي بالذات، فقد مثل الإسلام لهذه الأمة جوهر حضارتها، ومنبع ثقافتها، ومحدد وجهتها، وموجه مسيرتها نحو غايتها، وأهدافها وصار بالنسبة للمسلم ديناً وبالنسبة للعربي غير المسلم تراثاً وثقافة وتقاليد، إلا أن المفاهيم التي شاع تداولها -بعد سيادة النموذج المعرفي العلماني- وجرى استنباتها في البيئة العربية جعلت من الدين متغيراً تابعاً للمفاهيم الفكرية المجلوبة تارة، وجزءاً من المكون القومي تارة ثانية، وعقبة في طريق التقدم تارة ثالثة، وهو - في الوقت نفسه - لدى جماهير الأمة جوهر وجودها<<¹.

رابعاً: إعداد المفاهيم وتأهيلها وبناء نسقها خيار استراتيجي:

إن أولى الأولويات التي ينبغي الانطلاق منها في مسار البناء الحضاري وتحقيق النهضة المرجوة للأمة، هو الإعداد المنهجي والعلمي للمفاهيم المؤطرة للدفاع الحضاري باعتبارها الأرضية الصلبة التي يقف عليها هذا البناء، ونقصد بالإعداد حشد الإمكانيات البشرية والمادية والمعرفية لإنجاز مشروع في صورة حزمة من المفاهيم يكون ضابطاً لحركة الأمة أفراداً وجماعات، وينطلق من مرجعيتها، ويستثمر ما قامت به البشرية من جهود في خدمة الإنسان عبر مسار التاريخ. واعتبار هذا الإعداد أولوية فيه تقدير للعقل الإنساني، وضبط للفكر والتصور قصد تحقيق سلامة السلوك وضبط العلاقات الحياتية.

ولقد اعتبر المفكر المغربي محمد طلابي² هذا الإعداد أحد أهم المقاصد التي نادى بها الربيع الديمقراطي، إلى جانب مقاصد أخرى نوردتها كالاتي:

1- إنتاج مفاهيم فكرية، من خلال ثورة فكرية سابقة لأي ثورة أخرى، لذلك يدعو إلى إعداد خارطة طريق للمفاهيم القائدة لعملية التحول وتجاوز الوضعية الحالية، مثل مفهوم الدولة، ومفهوم السلطة، ومفهوم الإرهاب، ومفهوم الديمقراطية، وغيرها..

¹ - العلواني، طه جابر، بناء المفاهيم، ص 11.

² - محاضر ومفكر مغربي، ومدير مجلة الفرقان المغربية، من مؤسسي المنظمة العربية لحقوق الإنسان، وعضو بالمؤتمر القومي الإسلامي.



- 2- إنتاج القيم المركزية القائدة وإعادة توزيعها من خلال رسم خارطة طريق لحزم القيم السائدة، ومن بينها حزمة قيم الإيمان (الألوهية-الربوية-العبودية-الحاكمية)، وحزمة قيم العمران (العمل-العقل-العلم-الإنتاج-الوقت-النظام) وحزمة قيم الأخوة (الانتماء-الولاء-الوفاء)، وحزمة قيم العزة (الحرية-الكرامة-الأدمية...).
- 3- إنتاج السلطة وإعادة توزيعها.
- 4- إنتاج الثروة وإعادة توزيعها¹.

من خلال هذه المقاصد يتضح أن التحول من الوضعية الجامدة إلى الوضعية النشيطة يتطلب تغييرا عميقا في قوانين النفس الجمعية للأمة، إضافة إلى إعادة ترتيب القوى الثلاث الدافعة لأي نشاط بشري وهي: قوة العقل باعتبارها نشاطا ذهنيا حاكما وموجها وضابطا للقوتين التاليتين، وهما قوة العزة باعتبارها نشاطا تاريخيا يترجم حضور الأمة وتأثيرها في الآخر، وتحكيم قوة العقل فيها يؤطرها باستثمار العناصر الإيجابية والفاعلة في حركة الأمة وطرح كل العناصر السلبية، ثم قوة الشهوة باعتبارها نشاطا عضليا يتم من أجل البحث عن البقاء.

إن المشروع المفاهيمي، الذي نحن بصدد بيان أهميته في البناء الحضاري هو مشروع أمة، يتجاوز الأفراد والمؤسسات العلمية الصغيرة أو القطرية، إنه يأتي في مقدمة أي تخطيط استراتيجي في كافة المجالات، لذلك يتطلب أولا إرادة سياسية وأخلاقية من قبل أهل القرار في جميع المؤسسات والهيئات في الفكر والسياسة والاقتصاد والفن والرياضة وغيرها. لأن عملية الإعداد وبناء المفاهيم على حد تعبير الدكتور سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل: >> غاية في التشابك، لم تعد تقتصر على مجرد بناء "مفاهيم إسلامية أصيلة" فإن هذا أمر مهم في ذاته والاطلاع به إلا أنه وبالوقوف عنده- ليس كافيا لحل إشكالات المفاهيم التي تشيع في حياتنا العلمية والثقافية والفكرية، وبالجملة الحضارية². ومعنى ذلك، كما يشير الدكتور سيف الدين، أن هذا العمل نظرا لقيمه وأهميته ينبغي أن تعتبر فيه قواعد تأسيسية تراعي طبيعة منظومة المفاهيم، من حيث انسجامها رغم تعددها وتنوعها، وللدكتور سيف الدين عبد الفتاح -في هذا المقام- كلام نفيس سأعرضه رغم طوله نظرا لقيمه العلمية والمنهجية، حيث يقول: >> وهنا تبدو لنا أهم قواعد التأسيس لعملية البناء باعتبارها نقاطا أساسية للانطلاق، أهم هذه القواعد جميعا "المفاهيم عملية في صميم قضية الهوية"، والمفاهيم كانعكاس للجوهر الحضاري ليست سوى منظومة فكرية يفترض فيها الانسجام، والمفاهيم كمنظومة تتضمن عناصر مختلفة ووحدات مفاهيمية متعددة

¹ - طلاي، محمد، قيمة الأدمية في ميزان الحرية، ندوة تدافع وبناء القيم: السياق الدولي والواقع الإسلامي، تنظيم المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة وحركة التوحيد والإصلاح ومجلة البيان، الرباط، 1433 هـ. وينظر أيضا: محاضرة محمد طلاي: تدافع القيم بعد الربيع الديمقراطي.

² - سيف الدين، عبد الفتاح إسماعيل، مقدمة أساسية حول عملية بناء المفاهيم، كتاب بناء المفاهيم، دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، ص 27.



ومتنوعة لا يمكن رؤيتها إلا كعناصر مترتبة مترابطة تؤثر يقينا على موقعها في البنية المعرفية وقيمتها في السياق الفكري، وحجبتها في العملية الحضارية الممتدة، وسواء ترأبت المنظومة المفاهيمية كدرجات سلمية أو كحلقات دائرية متداخلة فإنها بحكم القاعدة التي تحكم النظام والمنظومة هي متفاعلة وربما تكون متكاملة متساندة¹ ثم يعدد الدكتور سيف مختلف أنواع المفاهيم من خلال رؤية تصنيفية تكشف عن ضخامة الجهد الذي ينبغي أن يولى لهذه القضية المفاهيمية: >> فهناك المفاهيم الحضارية القاعدية، وهناك المفاهيم المحورية، وهناك المفاهيم الإطارية والمفاهيم الكلية، والمفاهيم الخاصة، وتخصيص المفاهيم، ومفاهيم الأصل والفرع، ومفاهيم المجال البحثي التخصص، والمفاهيم- القيم، والمفاهيم- الوسائل، والمفاهيم- المقاصد، والمفاهيم- وحدات تحليلية، والمفاهيم- كأطر للتحليل، والمفاهيم المرجعية، والمفاهيم السياقية، والمفاهيم المنهجية والمفاهيم المستقرة، والمفاهيم المتغيرة، والمفاهيم المتعددة، والمفاهيم المتنوعة، والمفاهيم المشتقة، والمفاهيم المشتركة والمفاهيم المترابطة، وعائلة المفاهيم والشجرة المفاهيمية، وتداعي المفاهيم والعلاقات بينها، ومفاهيم الوصف، ومفاهيم التنظير، ومفاهيم الرصد ومفاهيم التحليل، ومفاهيم التفسير ومفاهيم التقويم، وظاهر المفاهيم وجوهر المفاهيم، وتحليل المفهوم إلى وحداته الأساسية، والتمييز ما بين مستوياته المختلفة والمتنوعة، وهناك مفاهيم أصيلة وأخرى تابعة².

إن هذا التنوع في المفاهيم واختلاف مستوياتها يفرض حركة حضارية مستمرة وواعية قصد إعداد حزم المفاهيم وتأهيلها لتكون في مستوى الإشكالات الراهنة داخليا وخارجيا، ويضطلع بهذه الحركة كل من له علاقة بقضية المفاهيم إنتاجا وبناء وتوظيفا وتعلّما، سواء أكانت مؤسسات قائمة أم مؤسسات ينبغي أن تقام لأداء هذه الوظائف، ومن بين هذه المؤسسات التي يجب أن تتدخل في هذا الإطار وتضطلع بدورها في سياق البناء الحضاري نقترح ما يلي:

- مؤسسات صناعة القرار السياسي- حكاما وأحزابا- الذين يتحتم عليهم تجاوز ذواتهم والنظر إلى السلطة باعتبارها مجالا لتحقيق آمال الأمة لا مصالحهم الضيقة، وأنها وسيلة للدفاع عن قضايا الشعوب الكبرى داخليا وخارجيا، حتى تكون في مستوى التنافس الحضاري. لذا ينبغي أن يوفر الدعم اللازم خاصة المادي واللوجيستي والقانوني، وإعداد برامج لحشد الأمة- بكل مكوناتها- من أجل تبني نسق المفاهيم المنبثق من الذات والمنفتح على الآخر انفتاحا متوازنا ومدروسا.

¹- المرجع نفسه ص 28.

²- المرجع نفسه ص 28.



- تكوين مجلس أعلى إسلامي لبناء المفاهيم وتوليد المصطلحات يضاهاى المنظمة العالمية للتقييس إيزو، التي تعنى بوضع معايير قياسية ودولية لتوحيد القياس العالمي في مختلف مجالات العمل. وهذا المجلس يتكون من علماء من مختلف التخصصات ومفكرين ولغويين مشهود لهم بالعمق العلمي والنفس الحضاري. ومن مهامه:
 - إعداد بنك إسلامي للمفاهيم القديمة والحديثة. في أفق معجم تاريخي للمصطلحات الحاملة لها..
 - وضع معايير لضبط المفاهيم وتحديدها.
 - وضع معايير لنقل المفاهيم أو استقبالتها.
 - المصادقة على ما تقرره بعض الهيئات والمؤسسات التي تعنى بالمصطلح.
 - إعداد تقارير عن مدى مطابقة السلوك السياسي للدول الإسلامية للمفاهيم المحددة.
 - التنسيق مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، التي وضعت ثلاث استراتيجيات حضارية كبرى¹:
 - أولها هي: استراتيجية تطوير التربية في البلاد الإسلامية.
 - وثانيها هي: الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي.
 - وثالثها هي: استراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية.
- تكوين هيئات تخصصية تعمل على إعداد دراسات حول وضعية التداول المفاهيمي في مختلف التخصصات، من خلال تتبع مساراتها التاريخية، ومدى بقائها في التخصص أو انتقالها أو ضعف تداولها أو انحرافها عن الدلالات العرفية.
- تفعيل أدوار الجامعات بجميع الدول الإسلامية واستنفارها لخدمة قضايا المفاهيم، من خلال إعداد برامج ونشاطات علمية وتظاهرات فكرية، ودعم بحوث علمية، قصد تنزيل المنجز من قبل المجلس الأعلى الإسلامي، إضافة إلى ضرورة إدراج المكون المصطلحي في إطار التخطيط اللغوي الوطني لكل دولة، مع برمجته مادة أساسا في جميع المستويات والمواد والتخصصات حتى يكون التأسيس العلمي لطلاب الجامعات علميا ومنهجيا ينطلق من المصطلحات الحاملة للمفاهيم وينتقل إلى دراسة المسائل والقضايا الكبرى في ضوء تلك المفاهيم.

¹ - التوجيري، عبد العزيز بن عثمان، الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري، ص 149.



- إحداث مراكز إسلامية للترجمة، تابعة للمجلس الأعلى الإسلامي، يكون هدفها تتبع حركة الترجمة من لغات الدول الإسلامية إلى غيرها، ومن لغات الآخر غير الإسلامي إلى لغات الدول الإسلامية، لضمان ترجمة أمينة، وسلامة المفاهيم من التحريف، كما تهتم بتفعيل هذه الحركة ودعمها.
- إحداث هيئات ومجامع لغوية بالدول الإسلامية، تخص كل لغة رسمية بهذه الدول، لتنشيط الحركة المعجمية وتفعيل الدراسات والأبحاث اللغوية قصد تأهيل هذه اللغات لمسايرة الحراك العلمي والتكنولوجي. فلا حديث عن المفاهيم بدون الحديث عن اللغة، لأنها المعبرة عن مضامين هذه المفاهيم وأهميتها تكمن في فهم الثقافة حق الفهم وهو >> أمر أخذ يحس به من يعرضون لدراسة الحضارات، وذلك لأن أي نظام لغوي تعبير عن نظام إدراك جماعة من الجماعات لبيئتها ونفسها، وإن لم يكن هذا التعبير كاملاً، ومن ثم فلا يستطيع أن يفهم حضارة ما حق الفهم من يجهل وسيلتها اللغوية في التعبير¹.

ومن أجل إعداد منهجي للمفاهيم جمعا وضبطا وتحديدنا نقترح بعض الإجراءات اللازمة لذلك وهي كما يأتي:

- 1- إحصاء المفاهيم وتعيينها بوضوح ثم تمييز الأصل فيها من الدخيل، مع تصنيفها إلى مفاهيم كلية ثابتة وموجهة، تعتبر الوحدات الأساس للتصورات والرؤى، ومفاهيم جزئية إجرائية تستثمر في التحليل والتصنيف وهي القابلة للتعديل أو التغيير بما يتماشى مع المستجدات والتطور المعرفي. إضافة إلى تصنيفها حسب مراتبها وأهميتها في النسق الكلي للمفاهيم.
- 2- تصنيفها حسب مجالات استعمالها وحقولها المعرفية.
- 3- إحياء المصطلحات الكائنة في الاستعمال التراثي الإسلامي، ومراجعة مضامينها، وضبطها ضبطاً دقيقاً، فما كان قوي الاصطلاحية، فيه كفاية للتعبير عن المستجدات المعاصرة يبقى عليه ويتم تسويقه وترويجه في المحافل العلمية والمعرفية وغيرها، وما كان ضعيف الاصطلاحية ينظر في قابليته للتأهيل الاصطلاحي، ومدى قدرته على أن ينخرط في الحركية المصطلحية السائرة.
- 4- إعداد تصور متكامل للتوليد المصطلحي من قبل أهل اللغة واللسانيين، يضعون بموجبه قوانين وأسس تحكم عملية التوليد والتجديد وتنمية الرصيد المعرفي والعلمي بما يلزم من مصطلحات.

¹ - سمرفلت، ألف، الاتجاهات الحديثة في علم اللغة، مجلة دمجين، عدد رقم 1، ص 64-70، نقلا عن علي جمعة محمد، في مقاله: مدخل لقضية المفاهيم والمصطلحات، كتاب: بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، ص: 24.



- 5- تحديد المصطلحات والمفاهيم تحديدا يبرز مضامينها الأصلية من خلال تعريفات دقيقة تسهل أمر استثمارها، وتعين على إدراجها في ما يناسب مضمونها. ويقع على عاتق المعنيين إيجاد منهج دقيق للفهم والتحديد والتصنيف.
- 6- إزالة ما علق بها من تحريفات مذهبية أو سياسية ضيقة، من خلال عمليات مراجعة ونقد، وجعلها صافية نقية من شوائبها الثقافية والتاريخية.
- 7- التنسيق بين المفاهيم من خلال توضيح العلاقات التي تربط بينها، ومعرفة عائلاتها، وأواصر القربى بينها، في أفق إدراجها في نسق كلي تنضوي تحته أنساق مفاهيمية صغرى حسب مجالات الحياة المتنوعة والحقول المعرفية.
- 8- اختبارها في وضعيات مختلفة، وجعلها وحدات أساسا في أي حوار حضاري لمعرفة مدى كفايتها لتحقيق التواصل.
- 9- إعادة النظر في المفاهيم الوافدة من ثقافات غير إسلامية، على مستوى النقل أو على مستوى التعريف أو التوظيف، بعيدا عن المواقف المسبقة التي تتجه نحو الرفض المطلق أو القبول المطلق لأن ذلك >> يحمل عناصر خلل شديد في التعامل الحساس في قضية أخطر ما تكون؛ إذ يمكن في النهاية رد مجمل البنیان المعرفي- الثقافي- الفكري- الحضاري إلى مجموعة من المفاهيم تجعل عناصر تقدير المصلحة في تبني مفهوم معين، أو ربما رفضه، أو التحفظ عليه أو على جوانبه: عمليات معقدة يجب حسابها بدقة، فإنها فضلا عن أنها تشكل عقل الأمة، فإنها داخلة في صميم هويتها واختصاصها¹.

خاتمة:

من خلال ما سبق يتضح أن تدارك واقع الأمة، وتجاوز وضعية التمزق والفرقة، وحالة التخلف والتبعية، يتطلب إعدادا شاملا يستوعب كل مجالات حياتها، على أساس الانطلاق من المدخل المفاهيمي، فبدون الاتفاق على منظومة للمفاهيم تمثل أرضية للتواصل والتفاهم بين الأفراد والجماعات، وتكون ضابطة للتصورات، وموجهة للسلوك، فإن أغلب الجهود تظل إهدارا للأوقات، وضياعا للطاقات والإمكانات. ومن ثم، فمنظومة المفاهيم، مطلب حضاري، وضرورة ثقافية وفكرية، كما أنها خيار استراتيجي يستدعي استنفار كل قوى الأمة المادية والفكرية

¹ - سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل، مقدمة أساسية حول عملية بناء المفاهيم، كتاب بناء المفاهيم، ص 29.



لتحقيق القوة المطلوبة حتى تصبح قادرة على التدافع مع الآخر، وتحقق ذاتها وهويتها في وسط عالم لا حياة فيه للضعفاء ولا كرامة لمن لا يحترم ذاته.

المصادر والمراجع:

• القرآن الكريم برواية حفص.

- 1- ابن نبي، مالك، وجهة العالم الإسلامي، الطبعة الخامسة، دار الفكر، دمشق، 1406هـ -1986م.
- 2- التويجري، عبد العزيز بن عثمان، الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري، سلسلة المعرفة للجميع، العدد3، منشورات رمسيس، 1999م.
- 3- حسنة، عمر عبيد، تقديم كتاب الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية- دراسة مقارنة، لعبد الله محمد الأمين، سلسلة كتاب الأمة، العدد 153، الطبعة الأولى، الدوحة، 1434هـ-2012م.
- 4- طلاي، امحمد، تقرير في نقد العقل السياسي المغربي الرسمي والمعارض، سلسلة اخترت لكم، الطبعة الأولى، ألوان مغربية، مكناس، 1423هـ-2002م.
- 5- العلواني، طه جابر، بناء المفاهيم، دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، إشراف علي جمعة محمد وسيف الدين عبد الفتاح إسماعيل، الطبعة الأولى، الجزء الأول، دار السلام للطباعة والنشر، 1429هـ-2008م.
- 6- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، لبنان، الطبعة الأولى، 1426هـ-2005.

محاضرات

- 7- طلاي، امحمد، محاضرة بندوة تدافع وبناء القيم: السياق الدولي والواقع الإسلامي، تنظيم المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة وحركة التوحيد والإصلاح ومجلة البيان، الرباط، 1433هـ.



maarifa-center.com



maarifa2011@gmail.com



facebook.com/almaarifa.centre